الذي صمّمه كاظم كنعان. ويُعدّ مطار بيروت الدوليّ، والمدينة الرياضيّة، وكازينو لبنان، والقصر الرئاسي من بين العديد من المشاريع العامة، فصارت شاهدًا على طموح السلطات وعزمها على إعطاء البلاد وجهًا حديثًا. وعلى الأرجح أنّ وزارة الدفاع لفوغنسكي وهنديه (١٩٦٢ – ١٩٦٨)، بالإضافة إلى معرض طرابلس الدولي الذي صمّمه أوسكار نيماير في العام ١٩٦٢، ومقرّ مؤسسة كهرباء لبنان لمجموعة سيتا (١٩٦٥ – ١٩٧٢) تندرج على قائمة النماذج الأفضل تعبيرًا عن العمارة العامّة في ذلك الوقت.

عندما برز الانشغال بالهويّة الإقليمية في منتصف ستّينات القرن العشرين، أعيد اكتشاف الموادّ المحلّية مثل الحجر الرمليّ، وكثُر انتشار الباحات الداخلية. فشملت أعمال عاصم سلام في تلك الفترة السرايا الحكوميّة في صيدا، ومسجد الخاشقجي (١٩٦٥) المشهور بجدرانه من الحجر الرمليّ يعلوها سقف معدّد الأوجه من الخرسانة وهو تصميم حديث للقبّة.

سبعينات القرن العشرين وثمانيناته

إلى جانب عدد قليل من الاستثناءات، كتصميم مبنى «إنتردیزاین» لخليل خوري، تطوّرت معظم عمارة السبعينات بعيداً عن الإبداع، فأضحت وكأنها ترجمة مباشرة لخرفيّة قانون البناء. فكثرت الشرفات الطوليّة المستقيمة التي تلتفّ حول مبان مملّة الطابع كنتيجة لمحاولة استثمار المساحة الإجمالية التي يسمح بها القانون. وعليه، تمّ التخلّي عن المنحى التجريبيّ الذي طُبعت فيه الفترة السابقة.

إعادة الإعمار في تسعينات القرن العشرين، وما تلاها

مع أنّ عمليّة البناء استمرّت طوال فترات الحرب التي عصفت بلبنان بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠، كان لا بدّ من حصول قطيعة معيّنة مع الماضي. فالفترات المتقطّعة من الاضطرابات التي هزّت البلاد تسبّبت بدمار هائل. ولمّا كان قلب بيروت مسرحًا للمعارك الضارية، انبثقت أحياء جديدة في الضواحي بين ليلة وضحاها. وسرعان ما بلغ التوسّع العشوائيّ تلك المناطق المحمّية نسبيًّا حتى ذلك الوقت من الزحف المدينيّ السريع. فكانت النتيجة خسارة وخيمة للتوازن بين المناطق المدينيّة والريفيّة، فيما عانى نسيج المناطق الريفية غزو المباني ذات الطابع المدينيّ، والتي غالبًا ما فرضت وجودها المتنافر على المنحدرات الجبليّة.

بعد الحرب، أثارت إعادة الإعمار وإعادة تطوير المناطق المدينيّة المسألة المعقّدة المرتبطة بالهوية. فقد عادت المسألة لتطفوَ على السطح بعدما ظُنّ أنّها حُلّت بالشكل المناسب في أوج الطفرة الثقافية في خمسينات القرن وستيناته، إلّا أنّها هذه المرّة لم تجد لها حلًّا، بل تكثّفت بسبب موجة ما بعد الحداثة المتأخّرة من جهة، والحنين إلى الهويّة الوطنيّة المهدّدة. في هذا الإطار، برز اتّجاهان: نهج مستشرٍ يقوم على التسلّح بالتكنولوجيا المتطوّرة، وهو محاولة يائسة للّحاق بركب بقية العالم، ونهج آخر يستعين بعناصر من التراث لا تعدو سوى تذكير بفقدانه. لحسن الحظ، ظهرت اتجاهات أخرى خالية من التصريحات السطحية، تعكس طابعًا يمكن وسمه بالحداثة المرتبطة بالمكان، على غرار مقرّ بنك عوده الذي صمّمه كيفن داش وانتهى تنفيذه في العام ٢٠٠١. أمّا مبنى CMA-CGM، وهو من تصميم مكتب نبيل غلام (٢٠٠٥ – ٢٠١١)، فعبارة عن ثلاثة كتل من الزجاج المزدوج تتميّز بمعالجة خاصة لأنحائها المختلفة لحمايتها من الشمس، وقد نجح مع منحاه التحديثي بالانتماء للنماذج التي تعود لخمسينات القرن وستيناته.

لا تزال العمارة في لبنان تتعافى من الآثار التي خلّفتها الحرب، مع أنّ الضرر في هذه الأيّام يطال المستوى النفسيّ أكثر منه الماديّ، قد فقدت الكثير من ثقتها السابقة، ونتيجةً لذلك تراها تنجرّ في الكثير من الأحيان إلى اختيار الأمان في التقاليد المعتادة.

وتلحّ الحاجة اليوم إلى الحرص على البيئة المدينية والطبيعية والعمل على تأمين حيّز عام، بدل الاستناد على المراجع النمطيّة السطحية أو المزايدة في «لبننة» التصميم.

الأردن

تأسّس الأردن كبلد مستقلّ في العام ١٩٢٤، بعد أن كان تحت الحكم العثماني جزءاً من ولاية سوريا وعاصمتها دمشق. وقد سكن الأردن موجات من المهاجرين، وتزايد العدد بسرعة كبيرة مع وصول الفلسطينيين في العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧. وقد استفادت عمّان من الطفرة النفطية في السبعينات وفي وقت لاحق من حرب الخليج في العام ١٩٩٠، ومرّة أخرى من الطفرة النفطية في العام ٢٠٠٥.

عمارة عمّان في الغالب من الحجر المحلّي. من عماراتها المميّزة في أوائل الثمانينات، مجمّع الرباط السكني لبلال حمّاد الذي يوفّر صفات التفاعل والعيش المشترك بين الجيران وينتمي إلى العمارة المعنية بالأداء أكثر منه بالأسلوب. في قرية SOS في العقبة على البحر الأحمر (١٩٨٨ – ١٩٩١) استخدم جعفر طوقان المهارات المحلّية في بناء الحجر بالاضافة الى بعض الجسور من الخرسانة سابقة الصب عند الحاجة، كما استعمل تقنيّات تهوية بسيطة.

وفي العام ٢٠٠١، شهدت عمّان مشروعاً يمكن أن يوصف عمّانياً بامتياز، هو مركز بريّة الأردن من تصميم عمّار خمّاش. يجثم على تلّة شديدة الانحدار في جبل عمّان، ويندمج ببساطة في المحيط من غير تصنّع ودون إشارة خرفيّة متوقّعة لانتمائه الى المكان. ويطبّق المشروع مبادئ إعادة التدوير مما يدلّ على أن العمارة الجيدة لا تحتاج إلى أكثر من ذلك.

وفي الأكاديمية الدولية في عمّان لخالد نحاس (٢٠٠٦) فإن استعمال تقنيات عديدة لبناء الحجر منها التقليدي ومنها المعاصر يثبت أن الحرفيّة ما زالت حيّة. هنا مرة أخرى، يتم الجمع بين الطاقة السلبيّة واستخدام المواد والتقنيات التقليدية مع وسائل الراحة المعاصرة.

فلسطين

ما زال تاريخ العمارة في فلسطين بحاجة إلى تدوين. وقد قام مركز المعمار الشعبي (رواق) في رام الله بمسح جبّار للمباني التاريخية التي بنيت قبل عام ١٩٤٨ في الضفّة الغربية وغزّة والقدس الشرقية. ويغطي العمل قرى وبلدات بأكملها منذ ١٧٠٠. في المقابل، تم القيام بالقليل بما يختص بعمارة القرن الماضي، خاصة بعد الاحتلال الإسرائيلي. لربما يشكّل الخطر على التراث الفلسطيني، القديم والحديث، حدّة أكثر من أي مكان آخر. إذ أن الاحتلال، والهدم المنهجي، يضاف إليهما في الآونة الأخيرة عمران غير مسبوق، لهم تأثير هائل على نوعية البيئة المبنية. وبالتأكيد يجب أن يشمل سجلّ مباني القرن العشرين في فلسطين قصر جاسر في بيت لحم (١٩١٤)، بيت العلمي في أريحا (١٩١٩)، بيت القطب للمعماري المصري سيّد كريم في شعفاط (١٩٦٠)، بعض أعمال هاني عرفات في نابلس في الستّينات مثل البلديّة وبيت السلطي، مبنى حنانيا التجاري في وسط رام الله (اركبيلد، ١٩٧١) ومبنى الهندسة في جامعة بيرزيت (فرانشيسكو مونتانا، ١٩٨٤).

يضاف إليها ثلاثة مبان مهمّة: فندق الزهرة – أمبسدور (١٩٥٣) في القدس الشرقية، من تصميم المعماريين جورج ريّس وتيو كنعان مع المهندس بغدسار إردكيان. وقد بُني رمزيًّا حول شجرة سنديان كبيرة. وفي الآونة الأخيرة، تم بناء معلَمَين في رام الله من تصميم المهندس المعماري جعفر طوقان وفريقه. ويحقّق كلا المشروعين البسيطين أفضل محاكاة للموقع مستنبطين منه الإلهام والصفاء والتأمل. مكوّنات المشروعين هي المناظر الطبيعية، وعمارة بسيطة من المواد المحلّية. في ضريح ياسر عرفات (٢٠٠٧)، وهو مكان متواضع وملهم معاً، يتقابل جناح الصلاة والمدفن على جانبي المسار. وتبدو قاعة الصلاة مساحةً تأمّليةً من حجر القدس مزيّنةً فقط بإفريز خُطّت عليه نقوشٌ قرآنية في حين تنعكس صورة المدفن في مساحة من الماء. أمّا صرح ومتحف الشاعر محمود درويش (٢٠١٢)، فيقع على تلّة حديقة البروة، ويتضمن الضريح، متحفاً، مسرحاً تحت الأرض ومسرحاً في الهواء الطلق .

سوريا

تميّز العقدان الأوّلان من القرن العشرين في سوريا بأعمال فرناندو دي أرانداً الذي صمّم محطّة سكّة حديد «الحجاز» في دمشق (١٩٠٨ – ١٩١٢) وجامعة دمشق (١٩٢٢ – ١٩٢٣). كما برز المعماريّ عبد الرزّاق ملص، صاحب مبنى مياه الفيجة.

وما لبث أن قام فندق أورينت بالاس لأنطوان تابت (١٩٣٠ – ١٩٣٣)، وهو مبنى حديث العمارة في المدينة، يتماشى مع المدرسة العقلانية الفرنسية لأوغست بيريه. أمّا ميشال إيكوشار، المعماريّ ومصمّم المدن الفرنسي، فقد صمّم اثنين من المباني الهامّة. أحدهما بمناسبة ترميم قصر العظم في العام ١٩٣٦، إذ أضاف منزلًا على أعمدة حديث الطابع لمدير المعهد الفرنسي الذي كان قد أُنشئ حديثًا. في الوقت نفسه، عمل إيكوشار على تصميم المتحف الوطني في دمشق، الذي أُنجز في العام ١٩٤٠، وقد جمع بين رصانة العمارة السورية القديمة وبساطة العمارة الحديثة. واستمرّ البلد ينعم بصناعة البناء مزدهرة حتّى الستّينات. فمن تلك الفترة، ظهرت بعض التصاميم المتميّزة لمعماريّين مصريّين أمثال مصطفى شوقي وصلاح زيتون، لا سيّما المستشفيات في دمشق وحلب وحماة. ثمّ عمل برهان طيارة ونوفل كسراوي على تصميم عمارة سكنيّة لنقابة الفنون الجميلة في دمشق (١٩٦٨ – ١٩٧٣)، وهو أوّل مبنى لشقق دوبلكس في البلاد.

عندما أمّم النظام السياسيّ الاشتراكيّ هذه المهنة وأفسح المجال أمام الشركات الكبيرة التي يديرها الجيش، كان لهذه الخطوة الوقع المدمّر على جودة العمارة في البلاد. على أثره، قرّر العديد من المعماريين مثل نوفل كسراوي الانتقال إلى المملكة العربيّة السعوديّة ولبنان والكويت. مع ذلك، فضّل آخرون البقاء واستطاعوا إيجاد هامش للمناورة، فكان للمعماريّ يوسف أبو حديد أعمالًا رائعة في دمشق، كوزارة التعليم العالي ومقرّ شركة التأمين السورية (١٩٩٢)، ولبرهان طيارة كلّية الهندسة المعماريّة في جامعة دمشق. وقد حصدت مدرسة شغراوية الابتدائية في السويداء، التي شُيّدت بحجر البازلت المحليّ في العام ١٩٩٠ على يد الإخوة مهنّا، جائزة الآغا خان، لكنّها لم تنجح في إحياء طرق البناء التقليدية.

من بين المباني المتميّزة التي رأت النور حوالي العام ٢٠٠٠ في دمشق، نذكر مدرسة ومسجد الشيخ بدر الدين الحسني لوائل السمهوري، وتتكوّن من مبنى يعدّ تسعة طوابق مع برنامج تعليم كامل للعلماء والدعاة الدينيين، بتكليف من الأوقاف الخيرية. ويعكس المشروع هذا الوضعَ الذي بلغته هذه المهنة في التفاوض بين المعمار وصاحب المشروع حول الطراز المعماريّ وأنواع فتحات النوافذ.

ترجمته عن الإنكليزيّة نجلا رعيدي